الحقيقة

وراء مختلف الظاهرات

بقلم حضرة الاستاذ الجليل والكاتب القدير حنا افندي خباز

(١)

في الكون امران ، الظاهرات المختلفة ، والوحدة وراء تلك الظاهرات . فالحيوانات البكم ، والناس الملتحقون بالحيوانات ، يدركون الظاهرات فقط ، ولا يبلغون الحقيقة التي وراءها . فلا يرون سواها ، ولا يسمعون ولا يشمون ولا يلمسون . فالظاهرة عندهم كل شيء . فمطالب هؤلاء ، ومطامعهم ، ووجودهم ، وآثارهم ، واولهم وآخرهم محصورة في الظاهرات . فحيوانات يولدون ، وحيوانات يعيشون ، وحيوانات يموتون .

قد يكون لهؤلاء منزلة عالية في مراتب الهيئة الاجتماعية . كما لو كان أحدهم تاجراً او حاكماً او كاهناً مثلا . وقد يسيطر على الالوف والملايين من البشر ، ومع ذلك فهو حيوان ابن حيوان ، ولا يرى الى ما هو ابعد من انفه . فعنده السبورة ، التي يرسم عليها الطلاب اشكالهم الهندسية هي كل شيء . وكل ما في الوجود ، في حسبانه ، هو ما يراه بعينه ، ويلمسه بيده ، ويضعه في جوفه ، ولا حظ له في الخلود . يؤلف هذا الصنف القسم الاكبر من الناس في كل قارات الدنيا في كل العصور .

ولكن هنالك صنفاً آخر ، هو أقل عدداً ، واجل شأناً ، واوفر نفعا من ذاك . وهو صاحب النظر الثاقب . الذي عنده السبورة ، وما عليها ، رمز واشارة فقط الى الحقيقة ، وليست الحقيقة ذاتها . وهو يدرك بثاقب بصيرته الحقائق التي يراد تجليتها بواسطة تلك الرموز والرسوم على السبورة (اللوح الاسود الكبير) .

يصحب افراد هذا النوع اخوانهم الحيوانات البشريين الى دار التمثيل . ويجلسون الى جانبهم ، ويشاركونهم في مصادمة سطحيات الامور . فيرون وجوه الحسان الممثلات ، ويسمعون اصوات المنشدين البديعة . ويشهدون الوقائع التي تمثل

على المسرح . ويقفون على فصول الرواية او المأساة . على انهم لا يقفون عند تلك الظاهرات . بل يرون مالا يراه اخوانهم الحيوانات من الحقائق التي وراء تلك الظاهرات . والتي هي المقصود بالمسرح ، ولاجلها وجد فن التمثيل . وان هذه الفصول ، والحركات ، والاصوات ، والمظاهر كلها ، ليست الا اشارات ورموز يراد بها تجلية تلك الحقائق

فيرى هؤلاء المدركون بواسطة المسرح والتمثيل الحقائق التالية :

١ : حقيقة الفن الراقي ومحسناته ، والتناسب بين اجزائه ، وحسن الاندماج والايضاح

٢ : حقيقة الرواية التي تمثل ، والغرض الذي لاجله الفت ومثلت . من حب وعهد ووفاء وغيرة وحكمة وعدالة الخ

٣ : الحقيقة الكونية وراء الواقعات الممثلة . وهي آخر ما تنتهي اليه المساعي البشرية . ويرون موضع تلك الحقيقة في سلم النشوء العام ، الذي يمثل ادوارها الحكماء والشعراء والملائكة والالهة ، في كل ادوار التاريخ من الازل الى الابد .

وبهذا الاعتبار يكون لصاحب النظر الثاقب فلك اوسع جواً من فلك اخيه الحيوان ، وله ايضاً جو ارحب . واساس اعمق ، وارتقاء اسمى . وكلما ارتقى الانسان في هذا الوجود اتسع محيطه الكروي ، وبعد نظره ، وطالت اشعة مداركه ، ذلك مقاس عظمة النابغين في كل الادهار

(٢) ماذا يرون

وماذا يرى الثاقبو البصائر والاذكياء العقول ؟

الجواب : انهم يرون الوحدة الاساسية وراء مختلف الظاهرات . مثلا . يرون انواع الناس ، من اسود وابيض ، واصفر واحمر واربد ، وطويل وقصير ، وغني وفقير ، وسمين وهزيل ، واشعر واجرد ، وشيخ وفتى ، وذكر وانثى . ويرون المصري والسوداني والسوري والعراقي والمغربي والعجمي والاوربي . وفي هؤلاء يرون الصانع والزارع ، والطامع والقانع ، والكاهن والكاتب ، والحاكم والطبيب

والمالي والحكيم وغيرهم . ولكنهم يرون وراء كل هذه المختلفات من الظواهر حقيقة واحدة هي

« الانسانية »

المتجلية في كل من اولئك الافراد والاجناس . فمهما تختلف فوارقهم فالانسانية اروعتهم وهم فروعها ومجاليها . فالابيض انسان ، والاسود ايضاً انسان . والاوربي انسان والاسيوي ، بل والافريقي ايضاً ، انسان . والفقير كالغني انسان والذكر كالانثى ، والبسيط كالعالم . والشرقي كالغربي . واذا فحصت بنيتهم التشريحية وجدتهم سواء بسواء . ففي كل منهم ٢٠٨ عظمات ، وستة عضلة ، وقدر معلوم من المجموعات العضمية والدورانية والتنفسية والعصبية ، وكلهم يعتمدون في حياتهم على الاوكسجين ، ولكل منهم درجة واحدة من الحرارة ، سواء سكن الدائرة القطبية المتجمدة او المنطقة الاستوائية . وكلهم بشر ، ضعاف امام الكوارث ، يخافون الفقر والمذلة ، واذا مات من يحبونه بكوه بالدمع السخين ، وكلهم يجزع للخبر المفزع ، وكلهم عرضة للخطوب . وكلهم تحت سلطة الانفعالات النفسانية ، من فرح وحزن ، وخوف وأمن ، وبأس ورجاء . وكلهم واحد في علاقاتهم الاهلية ، ونسبهم العائلية . فالاب أب ولو ملكا . والزوج زوج ولو فيلسوفا . والمريض مريض ولو قائداً كبيراً . يتألم ويئن كالطفل الصغير .

قال أحد الفلاسفة : — ان مظاهر الانسانية مختلفة على سطح مشهدها . ولكن تحت ذلك السطح حقيقة الانسانية ، وحاجاتها ، واشواقها وادواؤها ، واحدة

وأروم ان اتعمق ، أو اتوسع ، قليلا في التمثيل . فأتجاوز حدد الانسانية التشريحية والاجتماعية الى الحدود العقلية ، فاقول : يختلف الناس عقلا ، كما يختلفون جسما . ففيهم اللبيب والبليد ، كما فيهم الاسود والابيض . وفيهم الناطق والعي كما فيهم الطويل والقصير . وفيهم المولد والمقلد ، والمقتدر والضعيف ، والحر والمقيد ، والمتقدم والمتقهقر . اركب غارب الاسفار ، وطف حول الكرة الارضية ، براً وبحراً ، سهلا وجبلا ، شرقاً وغرباً ، او تصفح الكتب والاسفار ، وطالع

اخبار العابرين والغابرين . وزن وقايس وتمعن : تر ظاهرات العقول والادراك تتعدد تعدد الافراد من الناس . من الطفل الرضيع الى الشيخ الاشيب ، ومن الهوتنتوتي المنحط الى ارقى اوربي أو امركي . ولكن وراء تلك الظاهرات المختلفة وحدة عقلية ، كما ان في جميعهم وحدة انسانية . أعني ان في كل فرد عقلا وعاطفة وارادة . وفي كل عقل ناموس منطقي للفهم والحكم على السواء . وذلك أساس التفاهم بين أفراد الناس في مختلف الاماكن والازمان . فيحكمون حكماً واحداً ، مسلماً به عند العموم وهو ان ٢ + ٢ = ٤ . و ٥ × ٥ = ٢٥ وان الكل اعظم من جزئه ، وان المعلول لا يتقدم على علته . هذا هو اساس العلوم والاحكام والتفاهم — هذه البداهة والمقررات — ولولا وحدة المنطق في نفوسهم لما تشكلت هيئة ، ولا نشأ علم ، ولا سن قانون . بل كان البشر فوضى شاردين ، كذرات الهباء في ادوار التكوين الاولى لا رابط ولا نظام .

(٣) الدائر الحيوية

واروم ان اوسع الدائرة فادخل فيها غير الانسان من الاحياء

هل فكرت يوماً في طوائف الحيوانات ، وفصائل النبات ؟ ما اكثرها ، وما اوفر انواعها ومميزاتها ؟ طوائف الحيوان الكثيرة العدد ، المختلفة الاشكال والانواع . من زواحف وسوابح وطائرات ، في البر والبحر والهواء . من صغير وكبير وما بينهما . من اصغر الميكروبات ، الى اكبر الفيلة والحيتان . من ذوات ثدي ، وقفرات وحوافر ، وهلاميات ومعقدة النخاع . بعضها يلد ، وبعضها يبيض وبعضها يتحول من دود الى فراش . وبعضها يعيش على نفقة غيره كالعلق في الحيوان ، والفطر في النبات ، والعقد في الاخشاب . ولكن وراء كل تلك الطوائف والفصائل والعائلات حقيقة واحدة تجمعها كلها وتتجلى في كلها نوعاً وفرداً . وتلك الحقيقة هي

« الحياة »

التي تتصف بها كل انواع النبات والحيوان ، وبجلّيها في حياته واعماله .

ويميزها عن سواها من الجوامد غير العضوية . فقد مر بنا من الحقائق ما يلي

أولا : الحقيقة التشريحية — الفيسيولوجية

ثانياً : الحقيقة العقلية — العيكولوجية

ثالثاً : الحقيقة الحيوية — البيولوجية

وكل من هذه الحقائق مستتر وراء ألوف من الظاهرات ، تتجلى في ملايين الملايين من الافراد ، في ملايين الملايين من الادهار

(٤) في قبة الفلك

وهنالك دائرة أوسع ، وكرة مجوفة أحوط كثيراً ، من كل ما ذكرته من الدوائر الحيوية والانسانية والعقلية ، وهي دائرة ، أو دوائر ، الافلاك السموية ، بأروم ان اتسلق سلم هرشل وكبلر وتيخو براهي وميخائيلسن واضرب في عرض الفضاء متعكزاً على نظريات بيكن ودي كارت ونيوتن وهيغل . سابحة نفسي في رحاب هذا الفضاء المحبوب الذي لا يسد جوعها سواه . والتنقل بين مختلف الاجرام ، من قمر وسيار ونجم ثابت وعنقود وسديم . فأرى في رحاب هذا الفضاء اكثر من ألفي مليون شمس ، منتشرة في جوف هذه الكرة الفارغة ، مختلفة الحجوم والاقدار والابعاد ، هي مركز النظم ، وحولها تدور سياراتها . أقول ذلك قياساً على المختبر في نظامنا الخاص ، والمقايسة جائزة متى تشابهت الاوضاع

تصور في عقلك كم سيار حول ألفي مليون نجم ثابت . ثم تصور كم قمر حول سياراتها . عدا عما يمكن افتراضه في كل نظام — في الالفي مليون نظام — من النجيمات والحلقات والمذنبات وغيرها . فالراصد الذي هو من الصف الحيواني ، الذي لم يتضلع من علم الفلك ، ولم يحظ بالثاقب من المدارك ، يرى بمرصده هذه الاجرام النيرات البديعة ، تزين السماء في دجى الليل الحالك . فتسر بها نفسه ، وقد يشدو بوصفها . ويقف عند حد الظاهرات ، لا يخترقها الى ما وراءها . فهو كالبليد أمام مسرح التمثيل لا يرى غير ظاهرات الفصول والمشاهد . أو كالولد أمام السبورة ، لا يرى سوى تلك النقط البيضاء على الصفحة السوداء . أما الفلكي

الحكيم، الثاقب النظر، البعيد المدارك. فيرى تلك النقاط اللامعة في القبة الزرقاء كما رآها أخوه البعيد؛ ولكنه له في رأسه عيناً أخرى ليست لاخيه. وبتلك العين الخاصة يرى ما لم يره أخوه. يرى الحقيقة وراء تلك الظاهرات. حقيقة جوهرية أساسية مستترة متجلية تربط أفراد الاجرام، وتنظمها، وتقرر مصيرها، مع فرط تباعدها، ومختلف أقدارها، ووفرة الدهور التي مرت عليها في خلال تطوراتها. من أحصى تواريخ أطوار الاجرام، ووقف عند منابت النظم الفلكية؟. ان العقل المستنير بنور الحكمة العليا، يرى رؤية أرباب الفنون، من شاعر وموسيقي ومصور، يرى ما لا تراه العامة. يرى الحقيقة وراء دوائر الافلاك.

وتلك الحقيقة هي حقيقة

« الوجود »

التي يدعونها كسمولوجي

الموجودات قسمان، ذات حياة، وعديمة الحياة، ولكي أصور الميدان الذي تشغله هذه الثانية أبدأ هكذا: —

هذه الارض التي طوت قشرتها رفات أجدادنا وأجداد أجدادنا مذ درج الجنس البشري على سطح الغبراء. هذه الارض مع عظمتها، برها وبحرها، سهلها ووعرها. ومحيطها عند خط الاستواء خمسة وعشرون ألف ميل، هي كحبة رمل صغيرة جداً في فلاة واسعة. واليك البيان:

تقطع شعاعة النور في سيرها في عرض الفضاء خطاً بمنطق الارض طوله ٢٥٠٠٠ ميل في أقل من سبع ثانية من الزمن.

وتصلنا الشعاعة من القمر، على بعد ٢٤٠ ألف ميل في ثانية وثلث.

ومن الشمس مسافة ٩٢ ٠٠٠ ٠٠٠ في ثماني دقائق ونصف.

وتصلنا من أقرب الثوابت الى نظامنا هذا في ثلاث سنين. فيكون بعده عنا ١٧ ٥٩٧ ١١٨ ٠٠٠ ٠٠٠ ميل

ومن صورة فرساوس الشهيرة في ثلاثمئة سنة. فيكون اذاً بعدها عنا ١٧ ٥٩٧ ١١٨ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ميل

أما النجم المعروف بابط الجوزاء ، في صورة الجبار ، فبعده عنا مئتا ألف سنة نورانية . فلو ركب ملاك شعاعة النور من ابط الجوزاء ، وجاءنا بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ، ولم يعترضه معترض في سيره ، لوصلنا بعد مئتي ألف سنة .

فاذا أمكنك أن تتصور عظمة هذا الكون ، على ما تفيده الحقائق العلمية ، فانك ولا شك ستقف في مركز الكرة المجوفة خاشعاً حائراً . وترى انك نقطة هندسية ، لها وضع وليس لها امتداد . ولكنك تدرك بسهولة ان كل الاجرام التي أشرت اليها ، على اختلاف أبعادها وأقدارها . وحجومها ، هي ظاهرات حقيقة واحدة وراءها . يربطها ناموس واحد رعاها منذ وجودها . ولولا الناموس العامل بها ، والعقل الذي يتلقف ذلك الناموس باثاره ، لما كان نظام ، ولما كان علم يدرك النظام . فهذا الكون الواسع الأمد ، البعيد الاطراف ، له مظاهر عديدة ولكن حقيقته واحدة . وليس هو الا دولاب واحد ، كثير الاشعة ، يدور بقوة واحدة ، تتجلى به . تلك القوة التي نشدها الحكماء والشعراء والانبياء من عهد هيرقليطس وموسى ومينيس ، وما زالوا ولن يزالوا ، الى ما شاء الله . وان تقدم البشر في مضمار الارتقاء والقوة فليس بما كشفوا من أستارها ، وسبروا من أغوارها ، وعرفوا من أسرارها .

فوراء فقرنا وغنانا ، وجهلنا وعلمنا ، وحياتنا وموتنا ، ووراء آمالنا وآلامنا ، ووراء أمواج العقل المتلاطمة في بحر هذا الوجود ، وراء طوائف الحيوان والنبات ، ووراء الاجرام السابحة في الفضاء — وراء كل هذه الظاهرات — حقيقة سرمدية هي الفاعل في كل حوادث الكون . من أول حركة في السديم الى آخر حركة في السديم . وكل ما انطوى عليه كتاب المجالي من حل وتركيب ، ووصل وفصل ، ليس الا فقاقيع على صفحات هذا الغمر العظيم . وما هي تلك الحقيقة ؟

هي الجمال الذي تهواه نفوسنا ، على ما بينه أفلاطون . أو هي الجمال الكلي الذي عنه تصدر كل ظاهرات الجمال واليه تقود العقول والقلوب

يا شمس كل الورى لولاك ما بزغت شمس ولا لاح في جنح الدجى قمر
قد سبحتك النجوم الزهر شاهدة بانك الله والآصال والسحر